*** المنهج النقدي عند ريتشارد رورتي (1931 – 2007) : (المقالة السادسة)**

أد/ ناصر هاشم محمد

وبالرغم من قدم هذا المنهج وأصالته الفكرية ، إلا أنه لم يظهر كدراسة متخصصة ، إلا في الأحقاب الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين ، خاصة عند الفيلسوف الأمريكي "ريتشارد رورتي" الذي يُعد الأكثر تعبيراً والأصدق تمثيلاً للثقافة الأمريكية ، في بُعدها الفلسفي المعاصر ، فعلى يديه اتسعت دائرة البحث والفكر البراجماتي لتشمل الأفكار والخبرة والعلاقة بينهما ، كما شملت اللغة وقضاياها وإشكالياتها والمعرفة الثقافية والمجتمع السياسي وقضايا الأدب والنقد ، حتى فرضت البراجماتية رؤيتها وسط زخم التيارات الفلسفية المعاصرة بشيء من المصداقية والجدية ، بعد أن كان ينظر إليها في السابق بشيء من التشكيك ، والارتياب ، والتقليل من وزنها بين الفلسفات المختلفة .

وقد استطاع رورتي من خلال المنهج النقدي ،أن يجعل للفلسفة وظيفة جديدة، ودورا مغايرا ،هي وظيفة النقد لبعض المفاهيم الفلسفية البالية والتي كانت سائدة، وأن يطرح قضايا وإشكاليات جديدة من نوعها ، تتولى الفلسفة دراستها ومعالجتها، ونقدها مثل إشكالية العلاقة بين المنهج والفلسفة ، وبين المنهج وطبيعة المعرفة ، وبين المنهج وكل من المجتمع والثقافة ،وكان من أكبر الإشكاليات التي نقدتها الفلسفة، إشكالية اللغة والتأويل والهيرمنيوطيقا والابستمولوجيا والحداثة .

وهذه القضايا هي المحاور الرئيسية التي طبق عليها رورتي منهجه النقدي ، وأكد من خلاله تأثير النظرة الفلسفية النقدية على طبيعة الإنسان وأخلاقه وعقلانيته ، وهذا ما عبر عنه قائلا " إن واحدة من خصائص الفلسفة هو الأمل في أن نستطيع أن نعتقد المزيد من الحقائق ، أو بذل المزيد من الخير، أو أن نكون أكثر عقلانية من خلال معرفة المزيد عن الحقيقة أو الخير أو العقلانية "

وقد استطاع ريتشارد رورتي من خلال منهجه النقدي تحويل الأنظار إلى الفلسفة الأمريكية ، وعلى يديه حازت هذه الفلسفة على الكثير من الاهتمام والعناية التي جعلتها تقترب من نظريتها الأوربية . كما لعبت مؤلفاته دوراً بارزاً في إثراء الروح النقدية داخل الأوساط الثقافية والاجتماعية لمعظم لغات العالم ، حتى اعتبر رورتي المحرك الرئيسي للفلسفة البراجماتية في صورتها الجديدة ، وأكدت مؤلفاته ، وأفكاره المستنيرة على أنه

صاحب مشروع بعث حوار فلسفي جاد وجديد ، وصاحب الدعوة إلى إقامة جسور من التواصل بين الفلسفة البراجماتية الجديدة ، والفلسفات الأوربية ، وعرفت هذه الفلسفة شكلا وتصورا جديدا يختلف عن النزعة السيكولوجية البراجماتية التي دعى إليها روادها التقليديين أمثال "وليم جيمس" (1910) و"شارلز بيرس" (1914) ، "وجون ديوي" (1952) ، الذين نظروا للفكر نظرة تكيفية ، ونفعية صارمة ، وامتدت هذه النظرة عندهم لتشمل أفكار العالم الطبيعي، والمفاهيم الأخلاقية والدينية ، حتى انتهت هذه الفلسفة إلى إنكار الحقائق النهائية أو المطلقة ، وأصبح الفعل يقاس بنجاعته وقيمته المادية ونفعيته .

سمات التفكير النقدي عند ريتشارد رورتي :

ةلمرطقفيذ عخ نهدقمى لمخ زلئ ةآ هلئ :

أولا : أنه ينظر إلى الفلسفة باعتبارها شكلا من أشكال السلطة ، فكان " رورتي" يرى " أن التفكير النقدي يستتبع انخفاضا واضحا في الفلسفة إلى حالة بلاغية ، وهذا ما سيؤكده في كلامه عن المنعطف اللغوي Linguistic turn ، خاصة (2004) " جاك دريدا " الذي تأثر فيه تأثيرا واضحا بآراء الفيلسوف الفرنسي . في قوله " لما كانت اللغة هي سلسلة من الدلالات لا تشير إلى مدلولات مستقلة في وجودها ، فإن النصوص إذن لا تصور عالماً حقيقياً قائماً بصورة مستقلة عن اللغة ، ونتيجة لذلك ، فإن وظيفة النقد هي التركيز على النص ، باعتباره تركيبا لغويا و توليفة بلاغية يمكن فهمها عن طريق فكها وتفكيكها، حتى يمكن الكشف عن آلية البلاغة ، وهذه العملية لا تؤدي إلى الحقيقة ، بل وذلك جوهر الشك إلى إدراك أنه حيث تتوقع الحقيقية لا يوجد إلا غيابها ، ومراوغتها الدائمة فراغ مكان شاغر ، قامت اللغة بإخفائه إحساسا بالاكتمال أو الوحدة

ثانيا : أن التفكير النقدي عند "رورتي" لا يقوم على تتبع مسار الأجوبة والأسئلة التي تتجاوز قدرات العقل ، لأن أفضل ما يفعله لنا الفلاسفة هو تطوير الخطاب ، ليصبح مناسبا للعرض الجديد ، ولو نظرنا إلى النقد الذي مارسه "رورتي" حول الفلسفة والهيرمنيوطيقا ، واللغة ، والابستمولوجيا ، والحداثة ، والسياسة ، والاجتماع ، والأدب، سنجد أنه نقداً للنقد لأن "رورتي" كما يظهر لنا في كتاباته المختلفة يسعى دائما إلى مراجعة أقواله النقدية ، ومراجعة مصطلحاته النقدية ، وبنيتها المنطقية ومبادئه الأساسية وفرضياته التفسيرية ، وأدواته الإجرائية ، فالنزعة إلى إنتاج معرفة بفلسفة النقد وآليته ومقاصده هي في حقيقتها نقداً للنقد ،

والبحث في نقد النقد تتداخل فيه مباحث عديدة ومتشعبة ،تتعلق بالخلفية الفكرية والنظرية، وكذلك بالمنهج ومنظومة المصطلحات التي يستخدمها الفيلسوف كما تتعلق بآليات التفسير ، والتحليل ، ومقاصدها ، وهذا ما عبر عنه " رورتي " في فلسفته الجديدة .

ونقد النقد عند " رورتي " هو نشاطاً فكرياً، وهو ضرب من التأويلات وفق اختيارات القارئ ، وقدرته على التفسير والتحليل والتعليل

" ، نجح في وضع التراث الفلسفي برمته بدءاً Linguistic turnولهذا نجد أن رورتي في المنعطف اللغوي " من "بارمينيدس" (514 ق.م) مرورا "بديكارت" (1650) و"هيوم" (1776) ووصولا إلى "برادلي" (1924) "وهوايتهد" (1947) موضع الدفاع ، وقد تحقق ذلك الأمر على حد قوله " عبر الفحص الدقيق للطرق التي صاغ بها الفلاسفة التقليديون مشكلاتهم"

وقد نظر رورتي للناقد باعتباره وسيط بين النص والمتلقي ، وكان يرى أن الاختلافات الأساسية بين مذهب نقدي وآخر ، تدور في محورها حول ما يمكن أن يجئ به الناقد من داخله ، أو من واقعة الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي عند تعامله مع النص ، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من مراجعة بسيطة لتاريخ النقد ، لتأكيد تلك المقولة ، فمرة يكون دور الناقد التطبيقي هو إثارة النص من داخل النص فقط دون الاستعانة بأرشيفه الثقافي الخاص ، ومرة يقال إن النص لا يمكن فصله عن ذات مبدعه ، ومرة يقال إن النص لا يمكن فصله عن الواقع المادي الاجتماعي ،والاقتصادي والأيديولوجي الذي أنتجه ، إلى تلك التفسيرات التي تتفق جميعا على اختلافها

ويربط رورتي بين المثقف والنقد فهو يعتبر النزعة النقدية هي إحدى المكونات الأساسية لشخصية المثقف مهما اختلفت هويته ، ومرجعيته ، وانتماءاته ، فهذه النزعة ذات علاقة وثيقة بوظائفه ومهامه وعلائقه ، وهي التي تميزه في أنشطته عن غيره وهي الصفة التي لا يجوز له التخلي عنها فهي جزء لا يتجزأ من طبيعته، وتكوينه الثقافي .

اتجاهات النقد وموقع رورتي منها :

تنقسم اتجاهات النقد المعاصر إلى ثلاث اتجاهات رئيسية في التعامل مع التراث الفلسفي والعلمي :

: اتجاه ينادي بتحقيق قطيعة معرفية مع الماضي كشرط مسبق لتحقيق الحداثة . الأول

: اتجاه يرفض القطعية، ويعتبر التراث مدخل هام من مداخل السيطرة الجديدة . الثاني

: اتجاه وسط يرى أن علاقتنا بالتراث هي علاقة اتصال وانفصال في الوقت نفسه ، وإن كان البعض الثالث داخل هذا الاتجاه الأخير يعود إلى الماضي ليؤسس شرعية الحاضر ، وليس شرعية الماضي ، وهو ما يعني أن العصرنة والحداثة هما نقطة الانطلاق الحقيقية

والاتجاه الأول أي اتجاه القطيعة وهو أحد المفاهيم السائدة الآن على الساحة الفلسفية والعلمية ، والذي تبناه الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكوه" (1984) ، " وأعطاه شعبية متزايدة ، ويذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن تطور المعرفة العلمية لا يستند دوما إلى نفس المفاهيم التي تحملها التطورات العلمية في عصر من العصور ، أو في فترة من فترات تطور العلم ، بل إنه تطور يستند إلى إعادة بناء المفاهيم ، والتطورات ، والنظريات العلمية ، وإعادة تعريفها وإعطائها مضمونا جديدا .

ويعد الفيلسوف الفرنسي " جاستون باشلار " (1962) من أبرز القائلين بالقطيعة أو اللاستمرارية في تاريخ العلم ، فهو يبدأ مشروعه الفلسفي بالرفض الكامل لكل الفلسفات التي تستند إلى فروض التطور التدريجي، والاستمرار غير المنقطع في تاريخ العلم ، وهي الفلسفات التي سيطرت على ابستمولوجيا العلم في الثلث الأول من القرن العشرين ، ويذهب " باشلار " إلى أن هذه الفلسفات لا تقوم على أساس ويستحدث مفاهيم جديدة، ليعيد بها تفسير تاريخ العلم من منظوره الخاص مثل مفهوم القطيعة الابستمولوجية

ويرى "باشلار" أنه يمكن النظر لمفهوم القطيعة المعرفية من زاويتين أو مستويين .

: من جهة قطيعة ابستمولوجية بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية . الأول

: من جهة قطعية ابستمولوجية تتحقق مع النظريات العلمية المعاصرة في الرياضيات والعلوم الفيزيائية الثاني بين علم القرون السابقة والفكر العلمي الجديد الذي ظهر مع هذه النظريات .

والانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية لا يتم إلا من خلال قطيعة ابستمولوجية تلغي المرحلة الأولى لصالح الثانية وتفصل بينهما

وهاتان المرحلتان يمر بهما ضرورة كل علم ابتداء من الإرهاصات الأولى لنشأته ، حتى وصوله إلى مرحلة التأسيس الكامل .

أما الاتجاه الثاني فيرى أنصاره أن تاريخ العلم يسير في مسار متصل مستمر لا يعرف التقطع أو الانفصال " و"جورجFontenelle، وهؤلاء هم القائلون بالاستمرارية والتراكمية في العلم أمثال " برنارد فونتيل "

و"جورج سارتون" (1951) ، و"أوجست كونت" (1857) و"مايرسون" ، و" ليون برتشفيك " والمعرفة العلمية عندهم هي أشبه بالبناء الذي يشيد طابقا فوق طابق ، مع فارق أساسي هو أن سكان هذا البناء ينتقلون دوما إلى الطابق الأعلى ، أي أنهم كلما شيدوا طابقاً جديداً انتقلوا إليه وتركوا الطوابق السفلى لتكون مجرد أساس يرتكز عليه البناء ، لكن هذا الأمر يبدو طبيعيا لبعض المعارف العلمية، لكنه لا ينطبق بأي صورة على المعرفة الفلسفية التي يستحيل وصفها بالتراكمية أو الاستمرارية ،لأن كل مذهب جديد يظهر في الفلسفة لم يكن يبدأ من حيث انتهت المذاهب السابقة ، ولم يكن مكملاً لها ، بل كان ينتقد ما سبقه، ويتخذ لنفسه نقطة بداية جديدة ، وبذلك إذا استخدمنا التشبيه السابق كان في وسعنا أن تقول : إن البناء الفلسفي لا يرتفع إلى أعلى ، بل أنه يمتد امتدادا أفقيا

ويعد ريتشارد رورتي من أنصار الاتجاه الأول أي اتجاه القطيعة المعرفية مع السابق ،ومع الميتافيزيقا، والأفكار المطلقة، والفلسفة النسقية والحداثة ، ومن القائلين بالنقد المتواصل غير المنقطع لكل المفاهيم والأفكار ونقد العقل وظيفته عند رورتى هى بيان قدرة العقل ، وحدوده ، والشروط التي تحكم عمله ، وتبين ما الذي يستطيع ان يعرفه ، وما الذى لايستطيع ان يعرفه ، كما أن القطيعة التي ينادي بها رورتي هي أيضا قطيعة مع المفاهيم التأسيسية أو ما قبل المنهج كما يسميها الفلاسفة ، وهي أخيرا قطعية مع السلطة المطلقة للآباء والأجداد أو المفكرين ، والعلماء الذين يزعمون امتلاكهم للحقيقة المطلقة .

إن الفلسفة عند " رورتي " تتسم بطابعها النقدي الذي جعلها تنكر ما هو قائم ، وتحاول سبلا جديدة للمعرفة والحياة تقوم على أولوية الأنطولوجيا ، والسمة النقدية للفلسفة هي التي ربطت بين الأنطولوجيا والحياة العملية وقدرة الفلسفة على النقد تجعلها في صدام دائم مع السلطة بكل صورها ، وأشكالها ، سواء كانت سلطة دينية أو سياسية أو سلطة الموروث القديم ، لأن النقد يرفض الاستسلام لحقيقة كاذبة أو لواقع مزيف ، ويعمل

على إيقاظ الوعي الإنساني ، وبعث القدرة على الرفض ، لذلك لا يمكن النظر إلى النقد باعتباره ترفاً عقلياً ، أو تجاوراً فكرياً ينتهي بالتصفيق لأحد الطرفين ، بل النقد الفلسفي يعكس موقفاً محدداً تجاه قيم وتقاليد العصر ، ويستهدف كشف النقص الكامن في باطن الأشياء ، من أجل تجاوزه إلى مستوى أرقى وهذه ما تنشده الفلسفة عند "ريتشارد رورتي " .

إن النقدية الجديدة التي دعا إليها رورتي هي نقدية تتجاوز النقد الكانطي بتجاوزها لبرنامج العلم الأرسطي ، ودعوتها إلى التخلي عن مصادرة التأسيس التقليدية ، وترى أن النقد الفلسفي هو نقد العقل لذاته ولكن دون أي تبرير ذاتي للعقل .

إذن هي نقدية مغايرة لمثيلتها عند كانط الذي أسس فلسفته النقدي على نقد حدود العقل ، أي أن النقد الكانطي يتضمن معنين لا ثالث لهما :

الأول : إيجابي يحاول من خلاله تقييم حدود العقل ومدى إمكاناته في نطاق التجربة الحسية ، وهو تقييم هدفه الدفاع عن العلم ضد نزعة هيوم الارتيابية .

الثاني : يتضمن تقييما سلبيا للعقل ، حينما يحاول أن يتجاوز أسوار التجربة وتبدو الروح الديكارتية واضحة على هذا النقد الكانطي لأنه يسعى إلى ترسيخ المشكلة المنهجية الضرورية التي تخص وضع معيار محدود للمعرفة قبل محاولة التقدم لحل أي مشكلة فلسفية أخرى

وإذا نظرنا إلى النقد كمنهج سنجد أنه المنهج الأبرز الذي يعتمد عليه العلماء والفلاسفة في تقويم أعمالهم العلمية والفلسفية ، كما أنه المنهج الوحيد الذي يوضح التطور السريع للعلم والفكر الفلسفي ، وهو يمثل أهم خصوصية للمعرفة البشرية كما يقول الفيلسوف الكبير كار بوبر Popper عندما يتساءل أين تكمن خصوصية المعرفة البشرية What is Distinctive about Human .